

الخطبة الإذاعية (24) : خ 1 - حكمة الحج ، خ 2 - خطبة حجة الوداع.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-04-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

استفتاح الخطبة:

الحمد لله الذي جعل كلمة التوحيد لعباده حرزاً وحصناً، وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأمناً، وأكرمه بالنسبة إلى ذاته تشريفاً له وتحصيناً وأمناً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل الكعبة البيت الحرام قياماً للناس، والشهر الحرام، والهدي، والقلائد، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، وأن الله بكل شيء عليم، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، خير نبي اجتباه، وللعالمين أرسله، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، اللهم صل، وسلم، وبارك على سيدنا محمد، سيد الخلق، وحبيب الحق، وعلى آله وأصحابه الطيبين الظاهرين، أمناء دعوته، وقادة أولويته، وارض عننا، وعنهم يا رب العالمين.

أوصيكم ونفسي بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

الحج:

1 - العبادات الشعائرية هدفها السمو بالإنسان:

في الإسلام فضلاً عن العقائد التي تعد أساس الدين عبادات تنظم علاقة الإنسان بربه، ومعاملات تنظم علاقة الإنسان بأخيه، وإذا صحت العبادات ارتفعت المعاملات، وكان ارتقاء المعاملات مؤشراً على صحة العبادات، والعبادات تهدف أول ما تهدف إلى السمو بالإنسان نفساً وقولاً وعملاً، عن طريق إحكام الصلة بالله رب العالمين، والاهتداء بهديه، والتنعم بقربه، والتقلب في رحمته ، والارتشاف من عذب شرابه، وقطف ثمار فضله، ومن هذا المنطلق شُرعت العبادات الشعائرية، كالصلوة والصيام والحج.

2 - الحج عبادة مالية بدنية:

الحج هو أحد أركان الإسلام الخمسة، وهو عبادة مالية، بدنية شعائرية، وهو تلك الرحلة الفريدة في عالم الأسفار، ينتقل فيها الم سلم ببدنه، وقلبه إلى البلد الأمين الذي أقسم الله به، في القرآن الكريم ليقف في عرفات، وليطوّف ببيت الله الحرام، الذي جعله الإسلام رمزاً لتوحيد الله، ووحدة المسلمين، ففرض على المسلم أن يستقبله كل يوم خمس مرات في صلواته، قال تعالى:

(قُدْ نَرَى تَقْلِبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَلِّيَنَاكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوْلَ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجَدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْثُمْ فَوْلُوا وَجُوْهُكُمْ شَطَرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْثَوْا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة)

ثم فرض عليه أن يتوجه إليه بشخصه، ويطوف به بنفسه في العمر مرة واحدة.

3 - البيت العتيق: بناء إبراهيم ودعوته بالرزق لأهله:

إن هذا البيت العتيق هو أول بيت وضع للناس، هو أول بيت أقيم في الأرض لعبادة الله، وم جدد بنائه الخليل إبراهيم ولولده الذبيح إسماعيل، وهم الرسولان الكريمان اللذان جعل الله من ذريتهما هذه الأمة المسلمة، واستجاب دعوتهما الخالصة، وهم يشيدان هذا البناء العتيق، قال تعالى:

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقْبَلْ مِنَ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنَ لَكَ وَمَنْ ذُرَيْتَنَا أَمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا مَنَسِكَنَا وَتَبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ(128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَلَوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة البقرة)

قال صلى الله عليه وسلم:

((دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ))

[أحمد عن أبي أمامة]

4- الحج برهان عملى يقدمه المؤمن لربه ولنفسه:

والحج برهان عملي يقمه المؤمن لربه ولنفسه، على أن تلبيبة دعوة الله بداعف محبته وابتغاء رضوانه -
أفضل عنده من ماله، وأهله، وولده، وعمله، ودياره، ومما تتميز به هذه العبادة أنها تحتاج إلى تفرغ
تام، فلا تؤدي إلا في بيت الله الحرام.
إذاً لا بد من مغادرة الأوطان، وترك الأهل، والخلان، وتحمل مشاق السفر، والتعرض لأخطاره،
وإنفافة الماء، في سياق رضي عنه

5 - ثمار الحج

وإذا صح أن ثمن هذه العبادة باهظ التكاليف فإنه يصح أيضاً أن ثمرة هذه العبادة باهرة النتائج، حيث قال المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم: ((من حجَّ للهِ فلَمْ يرْفَثْ، وَلَمْ يَقْسُّقْ رَجَعَ كَيْوَمْ وَلَدَتْهُ أَمْهٌ))

[رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

و قال أيضاً:

((وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ))

مسلم عن عمر و بن العاص ١

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْحَجُّ الْمَبُرُورُ لِيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ))

[أحمد]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْثَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْحَاجُ وَالْعُمَارُ وَفَدُ اللَّهِ، إِنْ دَعَوْهُ أَجَابُهُمْ، وَإِنْ اسْتَغْرِقُوهُ عَفَرَ لَهُمْ))

[البيهقي في السنن الكبرى]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّلُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِبْرُ حَبْثَ الْحَدِيدِ وَالْأَذْهَبِ))

وَالْفِضَّةُ، وَلَيْسَ لِلْحَجَةِ الْمِبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ))

رواہ الترمذی والامام أحمد

عَنْ يُرَبِّدَةِ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((النَّفَقَةُ فِي الْحَجَّ كَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَبْعِينَ سَعِيْفَاً))

[البيهقي في السنن الكبرى]

6 - التلبية معزاتها ومدلولها:

يذهب المسلم إلى بيت الله الحرام، ويُخُلِّفُ في بلدته هموم المعاش والرزق، هموم العمل والكسب، هموم الزوجة والولد، وهموم الحاضر والمستقبل، وبعد أن يُحرِّم من الميقات يبتعد عن الدنيا كلياً، ويتجه إلى الله عز وجل ويقول : " لَبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ، لَبِيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبِيكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمَلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ ".

هذه التلبية كأنها استجابة لنداء ودعوة يقعان في قلبه، أن يا عبدي خل نفسك وتعال، تعال يا عبدي، لأريحك من هموم كالجبال، تجثم على صدرك، تعال يا عبدي لأطهرك من شهوات تُنْعَص حياتك.
إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمته مسؤول ؟

تعال يا عبدي، وذق طعم محبتي.. تعال يا عبدي، وذق حلاوة مناجاتي.

" لَبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبِيكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمَلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ " .
تعال يا عبدي لأريك من آياتي الباهرات، تعالى لأريك ملکوت الأرض والسماءات، تعالى لأضيء جوانحك بنوري الذي أشرقت به الظلمات، تعال لأعمر قلبك بسكينة عزت على أهل الأرض والسماءات تعال لأملاً نفسك غنىًّا ورضيًّا شقيتْ بفقدهما نفوس كثيرة، تعال لأخرجك من وحول الشهوات إلى جنات القربات، تعال لا نذك من وحشة بعد إلى أنس القرب، تعال لأخلصك من رُعب الشرك وذل النفاق إلى طمأنينة التوحيد وعز الطاعة.
لَبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبِيكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ، وَالْمَلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ " .

تعال يا عبدي لأنقلك من دنياك المحدودة، وعملك الرتيب، وهمومك الطاحنة إلى آفاق معرفتي، وشرف ذكري، وجنة قربي، تعال يا عبدي وحْط همومنك ومتاعبك، ومخاوفك عندي، فأنا أضمن لك زوالها، تعال يا عبدي وانكر حاجاتك، وأنت تدعوني فأنا أضمن لك قضاءها " ، إن بيوي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عُمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر " ..

فكيف يكون إكرامي لك إذا قطعت المسافات، وتجشمت المشقات، وتحملت النفقات، وزرتني في بيتي الحرام، ووقفت بعرفة تدعوني، وتستر ضيني.

" لَبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ، لَبِيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبِيكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ، وَالْمَلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ ".

تعال يا عبدي، وزرني في بيتي، لتنزاح عنك الهم، ولتعain الحقائق ولتستعد للقاء، فعن أبي سعيد^{رض} الخُذْرَى يرْفَعُهُ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

((إِنَّ عَبْدًا أَصْحَحْتُ جَسْمَهُ، وَأَوْسَعْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَعِيشَةِ ثَاتِي عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لَمْ يَفْدُ إِلَى لَمْحَرُومٍ))

[سنن البيهقي]

7 - الطواف وتقبيل الحجر الأسود:

تعال يا عبدي، وطف حول الكعبة طواف المحب حول محبوبه، واسع بين الصفا والمروة سعي المشتاق لمطلوبه، تعال يا عبدي، وقبل الحجر الأسود، يميني في الأرض، واذرف الدم على ما فات من عمر ضياعته في غير ما خلقت له، وعاهدني على ترك المعاصي والمخالفات على الإقبال على الطاعات والقربات، " وكن لي كما أريد لأنك كما ت يريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما ت يريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبرتك فيما ت يريد، ثم لا يكون إلا ما أريد خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقك عليك لا تشاغل بما ضمنته لك بما افترضته عليك ". " لَبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ، لَبِيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبِيكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ، وَالْمَلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ".

8 - الوقوف بعرفة نفحة وداعاء ومعرفة:

تعال يا عبدي إلى عرفات، يوم عرفة فهو يوم اللقاء الأكبر، تعالى لتتعرض لنفحة من نفحاتي تطهر قلبك من كل درن وشهوة، وتصفي نفسك من كل شائبة، وهذه النفحات تملأ قلبك سعادة وطمأنينة، وتشيع في نفسك سعادة لو وزعت على أهل بلد لكتهم، عندئذ لا تندر إلا على ساعة أمضيتها في قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.

تعال لعرفات يوم عرفة،لتتعرف أنك المخلوق الأول من بين كل المخلوقات، ولك وحدك سخرت الأرض والسماءات، وأنك حملت الأمانة التي أشفرت منها الجبال والأرض والسماءات، وأني جئت بك إلى الدنيا لتعريفني، وتعلمت عملاً صالحًا يؤهلك لجنة الخلد، تعال إلى عرفات يوم عرفة،لتتعرف أن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر، وأنك إن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فذلك فاتك كل شيء.

وبعد أن يذوق المؤمن في عرفات، من خلال دعائه، واقباله، واتصاله، روعة اللقاء، وحلوة المناجاة، ينغمس في لذة القرب، عندئذ تصغر الدنيا في عينيه، وتنتقل من قلبه إلى بيته، ويصبح أكبر همه الآخرة فيسعى إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وقد يكشف للحاج في عرفات أن كل شيء ساقه الله له مما يكرهه، هو محض عدل، ومحض فضل، ومحض رحمة، ويتحقق من قوله تعالى:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة: 216)

9 - رمي الجمرات: معرفة عداوة إبليس:

وبعد أن يفيض الحاج من عرفات، وقد حصلت له المعرفة واستثار قلبه، وصحت رؤيته يرى أن السعادة كلها في طاعة الله، وأن الشقاء كله في معصيته عندئذ ي رى عداوة الشيطان، وكيف أنه يهد أولياءه بالفقر إذا أنفقوا، ويخوفهم مما سوى الله، إذا أأنابوا وتابوا، ويعدهم، ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، قال تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا فَضَيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَلَا خَفَقْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِلَّيْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلٍ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

عندئذ يعبر الحاج عن عداوه للشيطان تعبيراً رمزاً برمي الجمار، ليكون الرمي تعبيراً مادياً، وعهداً موثقاً في عداوة الشيطان، ورفضاً لوساوشه وخطراته.

يقول الإمام الغزالى: " اعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى في العقبة، وفي الحقيقة ترمي بها وجه الشيطان، وتقسم ظهره، ولا يحصل إر غام أنه إلا بامتثالك أمر الله تعالى ".

10 - الهدي والأضاحى: شكر وتحية:

وحينما يتجه الحاج لسوق الهدي، ونحر الأضاحى، وકأن الهدي هدية إلى الله تعبيراً عن شكره لله على نعمة الهدى، التي هي أثمن نعمة على الإطلاق، وكأن ذبح الأضحية ذبح لكل شهوة، ورغبة لا ترضي الله، وتحية بكل غالٍ ورخيص، ونفس ونقيس في سبيل مرضاة رب العالمين، قال تعالى:

(لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَأْكُمْ وَبَشِّرُ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الحج)

11 - طواف الإفاضة والوداع: تهيئة العودة وتفكير في الرحلة الأخيرة:

ثم يكون طواف الإفاضة تثبيتاً لهذه الحقائق، وتلك المشاعر، ثم يطوف طواف الوداع لينطلق من هـ إلى بلده إنساناً آخر استثار قلبه بحقائق الإيمان، وأشرقت نفسه بأنوار القرب، وعقد العزم على تحقيق ما عاهد الله عليه، وإذا صح أن الحج رحلة إلى الله، فإنه يصح أيضاً أنه الرحلة قبل الأخيرة، لتجعل الرحلة الأخيرة مُضيّة إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

12 - زيارـة المدينة النبوية حـنـين وطـاعـة:

وبعد أن ينتهي الحجاج من مناسك الحج يتجهون إلى المدينة المنورة، التي هي من أحب بلاد الله إلى الله، يتجهون إليها لزيارة سيد الأنام صلـى اللهـ عليهـ وـسـلمـ، فقد روـيـ عنـ رسولـ اللهـ صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلمـ: ((من زارني بعد موتي فكانـما زارـنيـ فـيـ حـيـاتـيـ))

[التـرغـيبـ وـالـترـهـيبـ، وـإـسـتـادـهـ ضـعـيفـ]

وقد عـلـقـتـ فـيـ مـكـانـ بـارـزـ مـنـ الـحـجـرـ الشـرـيفـ الـآـيـةـ الـكـرـيمـةـ:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَابًا رَحِيمًا)

(سورة النساء: 64)

طـاعـةـ النـبـيـ مـنـ طـاعـةـ اللهـ:

وقد أشار القرطبي إلى أن الآية تصدق على زيارة النبي صلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلمـ فـيـ حـيـاتـهـ وـبـعـدـ مـاتـهـ، وليـسـ هـذـاـ لـغـيرـ النـبـيـ صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلمـ.

وقد أورد الفاسي في تفسيره أن في هذه الآية تنويعاً بشأن النبي صلـى اللهـ وـسـلامـهـ عـلـيـهـ، فالـرـجـلـ حينـماـ يـظـلـمـ نـفـسـهـ بـمـعـصـيـةـ رـبـهـ، مـنـ خـلـالـ خـرـوجـهـ عـنـ سـنـةـ النـبـيـ صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلمـ وـجـبـ عـلـيـهـ أـنـ يـسـتـغـفـرـ اللـهـ، وـأـنـ يـعـتـذـرـ مـنـ رـسـولـ اللـهـ صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلمـ، فـلـاـ تـنـتـمـ التـوـبـةـ إـلـىـ اللـهـ، وـلـاـ تـنـقـلـ إـلـاـ إـذـ ضـمـ إـلـىـ اـسـتـغـفـارـ اللـهـ اـسـتـغـفـارـ رـسـولـ اللـهـ صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلمـ، فـطـاعـةـ رـسـولـ اللـهـ صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلمـ عـيـنـ

طاعة الله، ورفض سنة النبي صلى الله عليه وسلم عين معصية الله وإرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو عين إرضاء الله، يستنبط هذا من إفراد الضمير في قوله تعالى عند كلمة يرضوه:
(يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

(سورة التوبه)

هكذا بضمير المفرد، ولا أدل على ذلك من قول الله تعالى:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا)

(سورة النساء: 80)

ومن قوله تعالى:
[سورة آل عمران]

ولعل سر السعادة التي تغمر قلب المسلم حينما يزور مقام النبي صلى الله عليه وسلم أنه ما إن يرى معلم المدينة حتى يزداد خفقات قلبه، وما إن يبصر الروضة الشريفة حتى يجهش بالبكاء، وعندئذ تصبح نفس الزائر صافية من كل ذكر، نقية من كل شائبة، سليمة من كل عيب، منتشرة بحبها له صلى الله عليه وسلم وقربها منه، وهذه حقيقة الشفاعة التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: "من جاءني زائراً، لم تزعه حاجة إلا زيارتي كان حقاً على الله أن أكون له شفيعاً يوم القيمة".

[رواية ابن خزيمة في صحيحه والبزار والدارقطني عن ابن عمر رضي الله عنهما]

وإذا شئت الدليل القرآني على ما يشعر به المسلم من سكينة وسعادة حينما يتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو أو بأخر، فهو قوله تعالى:

(خَذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ)

(سورة التوبه)

وقال الرازمي في تفسيره: إن روح محمد صلى الله عليه وسلم كانت روحًا قوية صافية مشرقة باهرة لشدة قربه من الله، ولأن قلبه الشريف مهبط لتجليات الله جل وعلا، فإذا ذكر أصحابه بالخير والود، أو ذكره المؤمنون بالحب والتقدير فاضت آثار من وقته الروحانية على أرواحهم، فأشرت بهدا السبب نفوسهم، وصفت سرائرهم، وهذه المعاني تفسر قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلَوَا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا)

(سورة الأحزاب)

روي أن بلا بلا رضي الله عنه سافر إلى الشام، وطال به المقام، بعد وفاة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم، ولقد رأى وهو في منامه وهو بالشام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: "ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني؟" فانتبه حزيناً، وركب راحلته، وقصد المدينة، فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يبكي عنده كثيراً، فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهم وجعل يضمهم، ويقبلهما

فقالا: نشتئي أن نسمع أذانك، الذي كنت تؤذن به لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصرّا عليه، فقصد
وعلا سطح المسجد، ووقف موقفه الذي كان يقفه.

ولما بدأ بقوله : الله أكبر .. وتذكر أهل المدينة عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ارجت المدينة،
وخرج المسلمون من بيوتهم، فما رأيت يوماً أكثر باكيًا وباكية في المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله
عليه وسلم من ذلك اليوم.

لقد صدق أبو سفيان رضي الله عنهم حينما قال: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد ممداً.
وهذه الحقيقة ينبغي أن تنسحب على كل مؤمن إلى يوم القيمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **((فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ))**

[رواه البخاري ومسلم 44]

الخطبة الثانية:

خطبة حجة الوداع مبادئ ودروس:

لقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع خطبة جامعة مانعة تضمنت مبادئ إنسانية سبقت
في كلمات سهلة سائغة، كيف لا وقد أوتي النبي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، فقد استواعت هذه
الخطبة جملة من الحقائق التي يحتاجها العالم الشارد المعدب ليرشد ويسعد، قال تعالى:

(قَالَ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدًى يَضِلُّ وَلَا يَشْقُى)

(سورة طه)

إن الله جل وعلا ربى محمداً صلى الله عليه وسلم ليربي به العرب، وربى العرب بمحمد صلى الله
عليه وسلم ليربي بهم الناس أجمعين، قال تعالى:

**(وَجَاهُدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتِبَأُكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ
سَمَّاَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلٍ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَأُكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)**

(سورة الحج)

فمن المبادئ التي انطوت عليها خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع:

1 - الإنسانية متساوية القيمة:

الإنسانية متساوية القيمة في أي إهاب تبرز، على أية حالة تكون فوق أي مستوى تربع،

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، إِنَّا لَمَا فَضَلْنَا عَرَبَيْ - عَلَى أَعْجَمِيْ، وَلَا لِعَجَمِيْ - عَلَى عَرَبَيْ، وَلَا لِأَحْمَرَ - عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ - عَلَى أَحْمَرَ، إِنَّا بِالنَّفْوَى، أَبَلَغْتُ؟ قَالُوا: بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[أحمد عن أبي نصرة]

2 - حرمة الدماء والأموال والأعراض:

النفس الإنسانية ما لم تكن مؤمنة بربها مؤمنة بوعده ووعيده مؤمنة بأنه يعلم سره ا وجهرها، لأن النفس الإنسانية تدور حول أثرتها، ولا تُبالي بشيء في سبيل غايتها، فربما بنت مجدها على أنقاض الآخرين، وبنت غناها على فقرهم، وبنت غزها على ذلهم، بل ربما بنت حياتها على موتهم، لذلك قال الرسول الكريم في حجة الوداع:

((أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ دَمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْهُ رَبُّكُمْ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ، لَا يَحْلُّ لَأَمْرِيَ مَالٌ أَخْيَهُ إِلَّا عَنْ طَيْبٍ نَفْسٍ مِنْهُ، وَإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَيُسَأَّلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا هُلْ بَلَغَتْ ؟ اللَّهُمَّ فَاشهِدْ))

[الحاكم والبيهقي]

3 - المال قوام الحياة:

والمال قوام الحياة، وينبغي أن يكون مُتدالاً بين كل الناس، وأنه إذا ولد المال المال من دون جهد حقيقي يسهم في عمارة الأرض وإغناء الحياة، تجمع في أيدي قليلة، وحرمت منه الكثرة الكثيرة، عندها تضطرب الحياة، ويظهر الحقد، وينتج إلى العنف، ولا يلد العنف إلا العنف، والربا يسهم بشكل أو بآخر في هذه النتائج المأساوية التي تعود على المجتمع البشري بالولايات، لهذا قال المصطفى صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع:

((إِنَّمَا وَلَدَ كُلَّ رَبَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ غَيْرَ رَبَّا الْعَبَاسِ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ - أَيْ أَسْقَطَهُ -))

[مسلم عن جابر]

4 - النساء شقائق الرجال:

النساء شقائق الرجال، ولأن المرأة مساوية للرجل تماماً من حيث إنها مكلفة كالرجل بالعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، ومساوية له من حيث استحقاقها الثواب والعقاب، وأنها مساوية له تماماً في التشريف والتكرير، لهذا قال صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع:

((اتقوا الله بالنساء واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد...))

5 - وصايا عامة:

ثم يتتابع خطبته فيقول:

((لَا تَتَّجُّعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ))

[البخاري عن ابن عباس]

((أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونه من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمت به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً: كتاب الله وسنة نبيه، وإنكم ستسألون عنِّي فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت فجعل يُشير بياصبعه المسبحة إلى السماء ثم إلى الناس وهو يقول: اللهم اشهد، اللهم اشهد))

والحمد لله رب العالمين